

مذكرات هـ — رة

١ — فاقد الشيء لا يعطيه

وقل من الناس من يسترشد بعقله ، يأخذ الأشياء من مصادرها ، فلا يعاند ضميره إذا أشار ، ولا يخالف منطقاً إذا حكم ، ولا يستنكف أن يعترف بخطأ وقع فيه ، فهدفه دائماً إرادة الخير لنفسه وللناس أجمعين .

فاقد الشيء لا يعطيه : من الأمثلة التي نقولها بالسنتنا ونخالفها بأعمالنا — ولو عقلمناها حقاً ! لما ضاع لنا حق وخفي علينا صواب ! .

٢ — خداع الناس

قرأت — ولا أدري أين ؟ مثلاً يقول : تستطيع أن تخدع الناس مرة واحدة وتخضع بعض الناس أكثر من مرة ، ولكنك لن تستطيع أن تخدع كل الناس في كل مرة أو كما قال ، فلست أحفظ المثل بالنص ، لأنني شخص من سواد الشعب ، والشعوب — كما يعلم القارئ أو كما لا يعلم — ضعيفة الذاكرة إلى حد بعيد ، ولولا هذا الضعف لما سنحت الفرصة لمن يسيء السيرة مرة أن يكرر إساءته إليها مرات دون خجل أو وجل .

وبعد فالمثل السابق ، قد صور علاقة الخداع بالمجتمع أدق تصوير ، يكاد يلمسه كل من حكمت عليه صروف حياته أن يختلط بالخداعين ، ولكن بعض الناس — كما تصفه أفعاله — لا يعبر هذا المثل التفاتاً ، وإن حفظه عن ظهر قلب وشاهد حقيقة على كل درب !

وكأن علاقة الناس قائمة كلها على نقض هذا المثل فهو يخدع الناس في كل مرة ، ويخدع الناس في كل مرة ولكنه لا يمتنع ولا يرتدع ، ولا يزال يفتن بالخداع ويفتن الناس بكشف القناع حتى تبور تجارتهم وتكسد بضاعتهم فيصبح سخرية المجالس وهزأة الأندية .

ومن المحقق أن المرء لا يبدأ بخداع الناس حتى ينتهي من خداع نفسه فإذا أسلس له قيادها شرع يجرب في الناس ، ومن ثم يتربى بالعلم ويتدرج بالحلم وهو للجهل صنم وللحقيقة علم ، ثم يخب ويضع في ضلاله ! ويغالط الناس في أفعاله وأقواله .

(البقية على ص ٢٥)

من الأمثلة التي تدور على ألسنة الأزهريين وفي كتبهم كثيراً قولهم : فاقد الشيء لا يعطيه ولقد أعجبت بهذا المثل مع قرب مفهومه وسداجة تعبيره ، ولعل إعجابي به عائد إلى التفاوت بين ما يشير إليه هذا المثل وما تسير عليه حياة الناس . ولو واجهت أحداً بهذا المثل وطلبت إليه إنكار صدقه والتدليل على كذبه لاعتبرك مأفوناً أو ساخرآ به — واطلق عليك ضحكة عريضة ! . ولكنك لو ذهبت تستقرئ حياته وتتأمل تصرفاته ، لربما وجدت بها خلاف ما يوحى به هذا المثل .

لأننا لا نسير في حياتنا حسب ما يقتضيه العقل ويوجبه المنطق ، بل ندع لغرائزنا حرية السيطرة على أعمالنا وأقوالنا ؛ نتصرف بها كيف تشاء .

وللغرائز والشهوات أهداف لا تناسب العقل ، ومن شأنها وضع الرغبات الشخصية فوق كل اعتبار ، حينئذ أطلت المنفعة فهناك الحق كله والصواب كله . ولا عبره بتأنيب الضمير ولوم العقل ! .

ومن الناس من يطلب العلم من الجهول ، والرشد من الضلال ، والوطنية ممن لا وطنيه له ، وهو — في حقيقة أمره — لا تهمة هذه الأشياء في قليل أو كثير ، وإنما غايته أن يصيب الخير لنفسه فقط ، فلا تعجب إذا رأيته يستأسد في الدفاع عن أباطيل سافره أو قضايا خاسره فإن وراءها مصلحته !

وهناك من يصدق في طلب الأشياء من مصادرها ، ويجد في الطلب ولكنه مأخوذ بالدعايات المضللة ، قد اشتبهت عليه مسالك الحق فخاد عن السبيل وأنشأ يخرب بيته يديه وهو يظن أنه يحسن صنعاً ، وبصعب عليك رده عن نيه وهو في سورة الجحاس ونشوة الاستبسال . واكثر ما يكون هذا وأمثاله على شيء كثيراً من سلامه النية وشيء قليل من التجارب ، وهدايتهم موكله إلى تذكيرهم دائماً بما هم عليه ووضع الأدلة الصحيحة والبراهين الشاهدة نصب أعينهم فهم بحاجة إلى الرعاية والحماية دائماً .